مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ م الموافق جمادى الثانية ورجب سنة ١٣٤٩ هـ

وليمة ابن واسانة

وصف المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي أحوال القرون الاسلامية الماضية وذكر مميزات كل قرن منها . وقال : ان القرن الرابع قد امتاز على بقية القرون بغلبة (خيالات الصوفية) عليه .

وقوله هذا مسلّم بالنسبة الى ماعدا قطرنا الشامي من مجموعة الأقطار الاسلامية . اما هو فأرى ان خيالات الصوفية لم تكن الغالبة عليه وانما الغالب عليه كان اللهو والطرب والتمتع بملذات الحياة على اختلاف ضروبها . وتنوع أشكالها : فقد كان لسوريا في القرن الرابع حالة سياسية منقلقلة جعلت السوريين يستسلمون للقدر فيما يتعلق بامور الملك والسياسة . ومن طبع الاستسلام للقدر ان يولد في نفس صاحبه فتوراً عن الكد والعمل وميلاً الى الراحة في ظلال النعيم . والتفريج عن القلب باللهو والطرب . وضروب المسليات . ومن هنا يمكن التوفيق بين ماقلناه عن طبيعة القرن الرابع وبين ماقاله الكواكبي : فهو يقول ان خيالات الصوفية كانت الغالبة عليه وقلنا نحن ان الاستسلام للقدر ثم للهو هو الغالب على أهله . ولكن أليس هذا الاستسلام اثراً من آثار خيالات الصوفية ؟ أليست خيالات الصوفية التي تسربت الى أذهاننا من متصوفة الأعاجم هي التي زهدتنا في الملك والسياسة وسهلت علينا الخضوع للعناصر الأعجمية . وجعلتنا نستسلم للقدر . ونهيم بالسوالف

(١) محاضرة للاستاذ المغربي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق بتاريخ ٢ و٩ تشرين الثاني من سنة ١٩٢٨ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والطرر . ونلهو بشرب الراح وعزف الوتر .

وهذا عمر الخيام الأعجمي ما الذي جعله يعيش معيشته الابيقورية لولا الخيالات الصوفية .

حالة سوريا في القرن الرابع

كانت سوريا كالزورق المستمسك بحبل الخلافة العباسية فلما ضعف شأن هذه الخلافة بتغلب آل بويه الأعاجم عليها في القرن الرابع للهجرة انقطع حبل السفينة فتاهت في عرض البحر . واذ ذاك اخذ أمراء مختلفو الجنسية يتجاذبون تلك السفينة من كل جانب : بعضهم يدعي ولايتها باسم خلافة بغداد العباسية وبعضهم باسم خلافة مصر الفاطمية . ولا ننسوا علوج الروم الذين كانوا في ذلك القرن يتواثبون على سوريا من ثغور آسيا الصغرى . ولا القرامطة وفرق الباطنية . ولا شراذم الأعراب التي كانت تعيث فساداً في الشامات فتروع آمنيها . وتقلق راحة ساكنيها . وقد اتصلت هذه الحالة المزعجة بزمن ابي العلاء المعري فوصفها وأشار الى ان عاطفة حب الوطن هي التي جعلته يألف الشام وحببت اليه الإقامة فيها . فقال مشيراً الى ما كانت تقاسيه البلاد من أذى الأعراب :

(أَلِفتُ بلاد الشام إلف ولادةٍ تلاقي بها سود الخطوب وحمرها)

(فطوراً نداري من سُبَيْعة ليثها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها)

ويظهر ان ابا العلاء في آخر الامر لم تمداراة قبيلتي ربيعة وسبيعة ولم يعد يطيق الصبر على أذى ليثها ونمرها . فرحل عن الشام الى بغداد وقال يخاطب ناقته :

(اذا دنوتِ لشامٍ او مررتِ به فنكّبيه وراء الظهر او حيدي)

(قد غيّر الدهر منه كل مبتهج وألحد السيف فيه بعد توحيد)

ثم عمّ الخطب بلاد الشام : فزحف عليها الصليبيون ونقصوها من أطرافها . واستولوا على معرة النعمان فرحل عنها ساكنوها يحملون معهم البؤس والشقاء . حتى قال قاضيها ابو المجد المعري واصفاً ما كابده في غربته . وما قاساه من بلادة غلامه (شعيا) الذي كان في خدمته :

(زمان غاض اهل الفضل فيه فسقياً للمنون به ورعيا)

(أسارى بين أتراك وروم وفقد أحبةٍ ورفاق شعيا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن في ظل هذا الاضطراب السياسي والقلق الاجتماعي الذي استحوذ على بلاد الشام كانت تنمو العلوم والآداب . وتزدهر فنون الحكمة والطب والفلك : فكان في ذلك العصر اكبر المؤلفين . وأشهر الفلاسفة والشعراء والمتأدبين . وقد غصت دور الكتب بالأسفار وآثار العلم الخالدة . وناهيكم مكتبة آل عمار الشهيرة في طرابلس الشام .

وما أشبه حالة القرن الرابع بعد الاسلام بحالة عرب الجاهلية قبل الاسلام : فقد كانت عرب الجاهلية في أحط الدركات من الوجهة الاجتماعية وان شئت قلت السياسية ايضاً . لكنهم كانوا في مستوى راقٍ من بلاغة القول والنبوغ في الشعر والحكم وضرب الأمثال .

وكما كانت ربوع العلم والعرفان زاهرة في بلاد الشام . وكانت مجالس رؤسائها أشبه بنوادي أدب وشعر — كذلك كان شأن الحضارة وانفساح العمران وتوفر اسباب الترف والنعيم ورغد العيش .

هكذا كانت البيئة الشامية يومئذ .

ترى من جهة حكاماً أعاجم يسوسون البلاد بالظلم والقهر . ومن جهة ثانية كنت ترى سوق العلم والأدب والشعر رائجة . وقد مهدت الحضارة امام الكافة طرق العيش الهني . والحياة الرغدة .

بيئة هذا شأنها لابد ان يطرح اهلها عن عواتقهم عبء الاهتمام بالسياسة والشؤون العامة وان يقبلوا على اللهو والطرب . والاصغاء الى أعذب الشعر وأفكهه . وعدم التصون من سماع أمجن القول وأفحشه .

في مثل هذا الوسط كان يعيش عبدالله بن الحجاج وابن سكرة والببغاء والحسين بن واسانة صاحب الوليمة . وأضرابهم ممن كانوا يجنون ثمار الملذات . من بين اشواك الفتن والاضطرابات . و يرشفون كؤوس المسرات . ولو تحت مشتجر القنا وظلال المشرفيات .

نرجع القهقرى في عصور التاريخ الى حوالي (سنة ٣٨٥هـ) لنتصور حالة دمشق نفسها : الأمر والنهي فيها يومئذ للعامة والأحداث [1] وجنود المغاربة . اما الخاصة والأشراف فماذا يكون لهم من التأثير والنفوذ إزاء هذا الجيش المختلط المتذمر .

(١) وكأنهم يريدون بالأحداث ما نريده اليوم بكلمة قبضايات وفتوات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نزور جامع دمشق . ونمر في أسواقها . ونغشى دور عظمائها . ومجالس علمائها . فلا نسمع الا همساً . والا قولهم تباً وتعساً .

نسمع هذا يقول :

ومتى ينظر المولى تعالى الى دمشق فينقذها من ظلم عمال الفاطميين ؟ ها إننا لم نكن ننجو من (منجوتكين) و (ابن تميم) حتى جاءنا هذا الجبار (ابن الصمصامة) . حقاً ان ظلم هؤلاء هو الذي جعل بني حمدان امراء حلب يستنجدون بباسيل (باسيليوس) ملك الروم .

فأجابه آخر :

وهل تظن ان الروم أشفق علينا . وأرحم بنا من امراء الفاطميين ؟ أنسيت ما فعله (البرجي) عامل الروم على انطاكية — باهل اللاذقية ؟ بل أنسيت ما كان من (باسيل) نفسه منذ جاء بلاد الشام على اثر استنجاد الحمدانية به . فنزل على أبواب حلب . فرحب به مراؤها آل حمدان . ثم سار الى حمص ففتحها وحاصر طرابلس الشام اكثر من اربعين يوماً ثم عاد الى القسطنطينية . اما والينا الفاطمي (ابو تميم) فلا أتمّ الله عليه نعمته : جاءنا بعد ان غدر بنا اخوه (علي) فواسانا . وطيب خواطرنا في اول الامر . ثم ظهر لنا من حاله ما لم يكن في الحسبان . وإن انسَ لا انسَ ذلك اليوم الذي جاء فيه الى جامع بني أمية يصلي الجمعة في ذلك الموكب الفخم . وقد ظهر على الناس بزيّ أهل الوقار . وبين يديه القرّاء والحجاب يفرّقون الدراهم على المساكين . وبعد ان صلى عاد الى قصره بظاهر دمشق وجعل ينظر في الظُلامات ويأمر باطلاق من في الحبوس . وبهذه الصورة استمال اليه قلوب العامة فأحبوه . ولكن ما عتّم ان انكشف امره . اذ تبين للناس انه مع سياسته وحسن ادارته كان مستهتَراً بالملذات . فنقمت منه العامة والجنود . وهجموا عليه في قصره . ونهبوا خزائنه . وأوقعوا برجاله . وهرب هو فلم يوقف له على أثر . وسادت الفوضى في دمشق . وخلا الجوّ للأحداث والشطار ولرئيسهم (الدُهيقين) الذي تولى قيادتهم . وعرف كيف يستثمر شطارتهم . واستمر الهرج والمرج حتى جاءنا (ابن الصمصامة) مولّى من قبل الفاطمي صاحب مصر . فخاف زعيم الأحداث (الدهيقين) من (ابن الصمصامة) فتسلل هارباً الى مصر طالباً الأمان لنفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يكد صاحب الحديث يتم حديثه حتى ناداه آخر — ويظهر من لهجته انه من اهل الساحل — فقال :

ما أشبه دهيقينكم يااهل دمشق بعلاّقة امير اهل صور . وأظنكم لاتعلمون من امر علاّقتنا هذا شيئاً : هو رجل نوتي . عصى مع اهل صور مارقاً من طاعة ملك مصر . وضرب سكة باسمه وكتب عليها (عزّ بعد فاقة الامير علاّقة) . فأرسل اليه ملك مصر اسطولاً مشحوناً بالمقاتلة . فاستنجد الامير (علاّقة) بالروم كما استنجد بهم قبله الحمدانيون ملوك حلب . فأنفذ ملك الروم الى معونة علاّقة اسطولاً فالتقى الاسطولان ثم كانت الغلبة للمصر يين على لروم . وفي آخر لامر أمسك علاّقة . وعاد الى الذلّ والفاقة . وأرسل الى مصر فسلخ وصلب غير مأسوف عليه .

ثم قال الساحلي يخاطب اهل دمشق : كيف رأيتم : أليس ان دُهيقينكم كان أشد فطانةً من (علاّقة) صور مذ بادر الى مصر وطلب الامان لنفسه ؟

فقال احد الحاضرين : دعونا بالله عليكم من (علاقة) و (دهيقين) وفكّروا في حالتنا الحاضرة : فكّروا في (ابن الصمصامة) الذي عاد من مصر الينا . ونزل نزول البلاء علينا . استقبلناه وهنئنا بالدعاء له وأخلينا له قرية (بيت لهيا) في الغوطة ليكون مقامه فيها مع عسكره . فأظهر لنا في اول الامر العدل . وتخفيف الثقل . و بالغ في الحفاوة : فخلع على رؤساء الأحداث . و حلاهم على الخيل والبغال . ووهب لهم الجواريّ والغلمان . وعين بعضهم له حجابا . ثم لم يلبث ان قلب لهم ظهر المجن فأوقع بهم وزحف بعسكره من (بيت لهيا) على سور دمشق فثلمه . وسمح لجنوده المغاربة ان ينزلوا في منازلنا وجعل يطوف في دمشق للبطش والتنكيل والناس يلوذون به مستغيثين طالبين لرحمته . فكفّ عنهم واستدعى اليه أشراف دمشق فجاؤوه مطمئنين حتى اذا استراحوا اخرج رؤساء الأحداث الذين في سجنه فضرب أعناقهم والأشراف ينظرون اليهم . ثم صلب كل واحد في محلته . وجرّد عسكراً الى المرج والغوطة وامرهم بوضع السيف في من بها من الأحداث . ثم عاد فقبض على الاشراف ونفاهم الى مصر وصادرهم في اموالهم ونعمهم . ووضع غرامة على اهل البلد بلغت خمسمائة الف دينار . اما الذين قتلوا في هذه الكارثة فقد بلغوا نحو ثلاثة آلاف نفس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هكذا كانت نار الفتنة تضطرم في دمشق : رقاب تُضرب . وشبان تُصلب . واموال تُنهب . أشراف تُنفى وتغرَّب . وابن واسانة[1] منهمك في إعداد وليمة في قرية (جمرايا) لضيوف قادمين عليه من دمشق .

اليوم صحو . والهواء عليل . وغوطة وادي بردى كحسناء مستلقية في ذلك الوادي . قد نقعت قدميها في مياه النهر وأسندت رأسها المكلل باغصان الحور الى هضبة من هضاب الربوة . واستغرقت في نوم عميق لم يوقظها منه الا أشعة الشمس . وخرير المياه . وزقزقة العصافير . وإلاَّ ضوضاء الضيوف المسرعين الى وليمة (ابن واسانة) .

فكنت ترى هؤلاء المدعوين يتراكضون على ظهور عتاق الخيل . وفُرُه البراذين : هذا يغني . وذاك ينشد الشعر . والآخر يطارح رفيقه النكتة . ولطيف المداعبة . يتخلل ذلك كله صهيل الضوامر . وأصوات وقع الحوافر . وعطعطة الخدم والاتباع . يتبادلون السباب . ويتنابزون حسب عادتهم بالألقاب .

وليمة (ابن واسانة) هذه في قرية (جمرايا) لها دويّ في أعماق كتب الأدب والتراجم : فقد دوّنها الثعالبي في اليتيمة (جزء ١ ص ٢٦٦) وخلد ذكرها ياقوت في معجم الادباء . وهاهي قد مضى عليها زهاء الف سنة ومازالت رطبة في الافواه . حلوة الوقع على الاسماع .

إذن يلزمنا ان نعرف (١) من هو ابن واسانة ؟ (٢) اين هي قرية جمرايا ؟ (٣) كيف كانت هذه الوليمة ؟ (٤) ماهي حالة جمرايا اليوم ؟ .

ابن واسانة

هو ابوالقاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني . و يظهر من هذا النسب ان (واسانة) اسم لاحدى جداته او أجداده فنسب اليها اواليه . وسماه (ياقوت) في معجم الادباء (ابن واسان) . وقال صاحب اليتيمة (جزء ١ ص ٢٦١) في نعته

(١) الحوادث الثلاثة التي سردناها في هذه المحاضرة وقعت حوالى سنة ٣٨٥ هـ ولاريب ان وليمة (ابن واسانة) وقعت ايضاً في ذلك الزمن . لكن لانعلم في اي سنة كانت . اما وفاته هو ففي سنة ٣٩٤ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(هو اعجوبة الزمان ونادرته ، وفريد عصره وبافعته ، وهو احد الفضلاء ، المجيدين في الهجاء ، وكان في زمانه ، كابن الرومي في أوانه) هذا ماقاله الثعالبي ، ويستنتج من تضاعيف كلامه ومن قصيدة هجوية لابن واسانة هجا بها ابا الفضل يوسف بن علي — ان ابا الفضل هذا كان والياً على ديوان الخراج والضياع في دمشق وكان ابن واسانة كاتباً عنده وكان مَنَشّاً او (مَنَسّي) بن ابراهيم القزّاز اليهودي موظفاً في ديوان الخراج بل ربما كان رئيس كتّاب ذلك الديوان ، فحمل الطيش ابن واسانة على نظم قصيدة في هجاء رئيسه (ابي الفضل ومنسى) وكان هجوه غاية في الإقذاع والفحش ، فما كان من ابي الفضل الا ان عزله فبقي من دون عمل طول عمره ثم مات (سنة ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م) .

اما إفحاشه في شعره فربما فاق فيه رصيفه ومعاصره عبد الله بن الحجاج (٣٩١ هـ ١٠٠٠ م) فكان ابن الحجاج زعيم الهجائين في العراق ، كما كان ابن واسانة زعيمهم في بلاد الشام .

وكان شعراء ذلك العصر الهجائون يخيفون الرؤساء وكبار رجال الدولة ويحملونهم على إكرامهم وتقليدهم الوظائف والاعمال ، لا بالالتماس او ابراز شهادة بل بقوة التهديد والهجو وهتك الاستار عن قبيح الاسرار وهي الطريقة التي يسميها أدباء الافرنج شانتاج (Chantage) فالشاعر البسامي البغدادي المتوفى في زمن الخليفة المقتدر (٣٠٣ هـ ٩١٥ م) هدد رؤساء الدولة ان لم يولّوه عملاً فقال :

(قل للرؤوس ومن تُرجى نوافلهم ومن يُؤمل فيه النفع والعمل)
(ان تشغلوني باعمال أُصيّرها شغلاً والا ففي أعراضكم شغل)

ابن واسانة دمشقي او حلبي ؟

في قصيدة (ابن واسانة) الآتية بيت من الشعر وصف نفسه فيه بانه (غريب ناء عن الاوطان) إذن هو غير دمشقي . وفي حلب حمام يسمى (حمام الواساني) فهل ابن واسانة حلبي؟

جاء في كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) مانصه : (الحمام الذي يعرف بالواساني ويقال له (الواسانو) قديم جداً : قال صاحب كنوز الذهب : في هذا الحمام جرن اسود يُذكر ان الخليل ابراهيم عليه السلام اغتسل منه ولم يزل هذا الامر مشهوراً حتى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآن . وهو حمام مبارك يدخله الناس للتبرك بآثار الخليل عليه السلام و يحصل لهم الشفاء من أمراضهم خصوصاً النساء . ولم يزل يزعم من يستأجر الحمام ان الجرن موجود فيه حتى الآن والحمام من أوقاف الحاج موسى الاميري اه .

وكتب اليّ بعض فضلاء حلب وقد سألته عن الواساني فقال :

« الواساني رجل له حمام بحلب ينسب اليه . والحمام موجود الى اليوم في سويقة حاتم وراء الجامع الكبير تابع لوقف الاميري ويسميه العامة (حمام الويسيني) بالإمالة . قال الرضيّ الحنبلي في كتابه (الزُبْدة والضَرْب) الواساني هو الذي ينسب اليه الحمام بحلب واسمه الحسن وكان شاعراً هجاءً وان كان العوام يعتقدونه اليوم من الاولياء وارباب المزارات اه .

ومن هذا يفهم ان باني الحمام في حلب هو ابن واسانة صاحب الوليمة في قرية جمرايا بدليل ماوصفه به من انه كان شاعراً هجاءً . غير انه سماه الحسن وصوابه الحسين كما في يتيمة الدهر . فهل يصح لنا الحكم بانه حلبي ؟ كلا : فان الشبهة في نسبته الى حلب مازالت موجودة بدليل ان في كتاب (يتيمة الدهر) قصيدة هجوية لابن واسانة ومطلعها :

(ياساكني حلب العواصم جادها صوب الغمامة)

(انافي مدينتكم غريب لست من اهل الاقامة)

فالله يعلم اين كان مسقط رأس ابن واسانة قبل انه يسكن (حلب) و (دمشق) اولعله يريد بقوله (انا في مدينتكم غريب) انه كالغريب في عدم وجود اصدقاء له او في سهولة رحيله عنها فهو لايهاب من يهجوهم ولايخشى بطشهم على حد قولهم (لاتعاند من اذا هدّ رحل) فيكون حلبياً وأقام في دمشق طويلاً .

قرية جمرايا

هذه القرية من قرى دمشق وقد كان لها يوم أقيمت فيها وليمة ابن واسانة منذ الف سنة شأن عظيم . ثم انحطت في عمرانها حتى أصبحت مزرعة صغيرة واخذ اسمها (جمرايا) يتضاءل و يتلاشى من الالسنة شيئاً فشيئاً اللهم الا من ألسنة أكّاريها القليلين الخاملين . ومما زاد في غموض امرها وضياع اسمها ان جيمها كانت تُنصحف في كتب الأدب واللغة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في (اليتيمة) اسمها (حمرايا) بالحاء المهملة . وكذا في تاج العروس : فقد روى مؤلفه بيتي احمد بن منير هكذا :

(بالنيربين فمقرى فالسرير فحمـ ـ رايا فجوّ حواشي جسر جسرين)
(فالقصر فالمرج فالميدان فالشرف الأعلى فسطرا فجرمانا فقلتين)

وذُكرت (جمرايا) في معجم الادباء باسم (خمرايا) بالخاء المعجمة . اما في (معجم البلدان) فذكرت مرتين مرة باسم (حمرايا) بالمهملة ومرة باسمها الصحيح (جمرايا) بالجيم المعجمة وذلك بمناسبة الكلام على نهر بردى فقد قال : ان عيوناً تظهر على مقربة من الزبداني فتصب في قرية الفيجة وتنضم اليها عين أخرى . ثم يخرج الجميع الى قرية تعرف بجمرايا (وقد ضبطها بالشكل بضم الجيم) فيفترق الماء حينئذ فيصير اكثره في بردى و يحمل الباقي نهر يزيد » اه .

هكذا تصحف اسم هذه القرية وكادت هي نفسها تنطمس ايضاً حتى اني سألت النُّقَّاء المعمرين من اهل دمشق عنها فلم يعرفوها لا باسمها الحقيقي ولا باسمها المصحّف . وأجدر الناس بالحيرة هم أدباء دمشق وعلماؤها الذين كانوا يقرأون حكاية وليمة ابن واسانة في كتاب اليتيمة المطبوع في بلدهم ويتمنون لو يعرفون اين هي قرية جمرايا التي أقيمت فيها الوليمة وكان أشدهم حيرةً المرحوم الشيخ طاهر الجزائري فقد مات وبقيت في قلبه حسرة من (جمرايا) كما مات الاصمعي وفي قلبه حسرة من (حتى) .

ولما طالعت (اليتيمة) في شهر مايس سنة ١٩٢٦ وقرأت وصف الوليمة الواسانية شاركت الاخوان في حيرتهم وأخذت أتساءل عن قرية (جمرايا) وأراجع عنها في المظان وكنت كلما أوغلت في المراجعة ارتطمت في الشبه والشكوك .

ثم اتفق في اثناء الحرب العامة ان الاستاذ الشيخ عبد القادر الخطيب احد خطباء الجامع الأموي ملك قطعة ارض في مزرعة (جمرايا) فعلم من اكّاريها ان اسم مزرعتهم (جمرايا) بالجيم و بالطبع كان اسمها كذلك في اوراق التمليك الرسمية التي بيده . وقد بنى الاستاذ ثمة داراً حسنة وجعل يحدّث اخوانه عن (جمرايا) وجمال موقعها وطيب هوائها . و يدعوهم الى زيارته و بهذه الصورة نشرت قرية (جمرايا) من مطمورة العدم وعادت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فولدت من جديد باسمها الحقيقي وظهر ان محلها وادي بردى على قيد غلوة من قرية الهامة منتزه اهل دمشق المشهور .

وقال بعض الفضلاء « ان قرية جمرايا كانت موقوفة على احدى مدارس دمشق » وإذن لا بد ان يكون لها ذكر في كتاب (الدارس في المدارس) فلعلنا نظفر به ونحن نصحح هذا الكتاب اليوم ونعده للطبع والنشر .

وسمعت فاضلاً آخر يقول : ذكر ياقوت في معجم البلدان (ان قرية يقال لها جمرايا واقعة بين الهامة والأشرفية كانت قديماً مصيفاً لملوك دمشق) ولم أعثر على هذا النص في المعجم .

وليمة ابن واسانة

عرفنا ترجمة (ابن واسانة) وشيئاً عن قرية (جمرايا) بقي علينا ان نعرف ماهي الظروف التي جعلت ابن واسانة يقيم هذه الوليمة في جمرايا ؟ .

لم توصف هذه الوليمة نثراً في كتب الأدب وانما وصفها صاحبها ابن واسانة شعراً بقصيدة قالها فيها : والقصيدة نحو مائتي بيت ذكرها الثعالبي في (اليتيمة) ثم قال مانصه : « قد أحسن في هذه القصيدة غاية الاحسان . وأبان فيها عن مغزاه احسن بيان . وتصرف فيها واطال . وامكنه القول فقال . واذا تخلص الشاعر عند الإطالة والوصف هذا التخلص . سلم مما يؤديه الى التكلف والتلصص . فهو الذي لا يدرك غوره . ولا يخاض بحره اه .

ويمكننا ان نستخرج اسباب هذه الوليمة من القصيدة نفسها التي قيلت فيها: فقد كان يوجد في دمشق في ذلك العهد رجل من الاشراف يكنى (ابا القاسم) وله اخ اسمه (الفضل) ويظهر انهما كانا صديقين للشاعر ابن واسانة وانهما من أصحاب الجاه والظهور والخول والأتباع . فكلفا ابن واسانة ان يصنع لها وليمة في قصره في قرية (جمرايا) وكان معهما جمع من الأصدقاء والأدباء . منهم رجل اسمه (الشمولي) ولعل الشمولي هذا هو (بدر الشمولي) الذي تقلد ولاية دمشق سنة ٣٦٣ هـ وان لم يكن هو فواحد من ذريته . وكان في جملة المدعوين (بنو ابي صفوان) ورجل اسمه (ابن المبشر) وصديقان لابن واسانة لم يصرح باسمهما : احدهما أديب والآخر كاتب . ويفهم من القصيدة ايضاً ان لابن واسانة ولداً صغيراً يحبه اسمه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(ميمون) وذكر في القصيدة ان الخروج الى الوليمة كان ليلة الخميس المصادفة لليلة عيد المرافع . ولم يعين في أية سنة كانت الوليمة . وأشار الى ان قرية (جمرايا) تبعد عن دمشق تسعة أميال . وقد مر ان جمرايا على غلوة من الهامة والهامة تبعد عن دمشق ١٣ كيلومتراً . وفيما عدا ذلك استوعبت القصيدة اسماء المآكل والمشارب ونتفاً من أحوال ذلك الزمن الأخلاقية والاجتماعية مما يحرص عليه كل من يهمه الوقوف على تاريخ دمشق وأخلاق اهلها وحالة عمرانها منذ الف سنة .

ولعمري ان في هذه القصيدة الخالدة اكبر دليل على درجة الترف والرغد الذي كان يتمتع به اهل دمشق في ذلك العهد . ولا نطيل في وصف القصيدة وما يستخرج منها من الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية بل ندع ذلك لها ولقائلها (ابن واسانه) فهما أفصح لساناً . وأروع بياناً .

تعلمون ايها السادة ان الإلفة وارتفاع الكلفة اذا استحكما بين شخص وبين من يدعوهم الى ضيافته فكثيراً ما يأخذ هؤلاء الضيوف يهيبون الطعام تارةً . ويستقلونه طوراً . ويكلفون صاحبهم احياناً ان يحضرلهم ألواناً أخرى من الطعام وأطايبه . بل يقومون فيفتشون عنها في زوايا البيت ومخابئه . فيأخذ صاحب الدعوة اذذاك في الصراخ والعويل والتبرم بالقوم ورفع الصوت في الدعاء عليهم . بل يحلف انهم خربوا داره . وأفقروا اهله وصغاره .

يقع هذا بين الأصدقاء في هذه الايام . وعلى هذا الاساس بنى ابن واسانة قصيدته التي قالها منذ الف عام : فهو يصف المدعوين بالشَرَه والنهم وانهم كالجراد المنتشر لم يَدَعوا في قريته أخضر ولا يابساً الا التهموه . ولا متاعاً او إناءً الا حطموه . وقد سلك في الوصف مسلك الغلو والتهويل . زيادةً في الإحماض والمداعبة واظهار المقدرة في نظم الشعر وحسن التصرف في أفانين القول وابتكار المعاني . حتى قال ياقوت في كتابه (معجم الادباء) : « انه احسن في هذه القصيدة كل الإحسان . وابان عن مقاصده احسن بيان » . وموعدنا بالقصيدة العدد الآتي .

« المغربي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجزء ١٢ المجلد ١٠

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : كانون الاول سنة ١٩٣٠ م الموافق رجب وشعبان سنة ١٣٤٩ هـ

وليمة ابن واسانة

- ٢ -

فأول ما افتتح به ابن واسانة قصيدته وصفه للصيبة التي نزلت به من جراء هذه الوليمة فقال :

(من لعين تجود بالهملان ولقلب مدأمه حيران)
(يا خليليّ اقصرا عن ملامي وارثيالي من نكبتي وارحماني)
(من عذيري من دعوة اوهنت عظمي وهدّت بهولها أركاني)

ثم وصف كيف احتشد الناس على اختلاف أجناسهم من اجل الدعوة فقال :

(ضرب البوق في دمشق ونادوا لشقائي في سائر البلدان)
(النفيرَ النفيرَ بالخيل والرَجْـ ـلِ الى بيت ذا الفتى الواساني)
(جمعوا لي الجموع من جيل جيلا نَ وفرغانة ومن ديلمان)
(ومن الروم والصقالب والتر ك وخلقاً من بُلْغَر والّلان)
(ومن الهند والطماطم والبَرْ بر والكيلجوج والبيلقان)
(لم يخلّوا ممن عددت من الآ فاق من مسلم ولا نصراني)
(والبوادي من الحجاز الى نجْـ ـد معَدّيها مع القحطاني)

هذه الأبيات تتضمن درساً في الجغرافيا . و (الكيلجوج) يبحث عنه فلم اهتد الى معرفته فلعل الكلمة محرفة . واما (اللان) فهي كورة بين ارمينية و بحر الخزر . و (البيلقان) بزيادة ياء بعد الباء اسم مدينتين ذكرهما المقدسي في جغرافيته (أحسن التقاسيم) احداهما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ارمينية والأخرى في آذربيجان . و (بلغار) هي مدينة الصقالبة الواقعة في اقصى الشمال من بلاد الروسية يذكرها فقهاء الاسلام في كتبهم عند ذكر أوقات الصلاة وتحديدها : فان الشمس لا تكاد تغرب في (بلغار) حتى تشرق بعد اقل من ساعة . فهل يصلي مسلموا تلك البلاد صلاة العشاء او هي قد سقطت عنهم بسقوط وقتها — خلاف بين الفقهاء . وربما سميت بلغار البلقان بلغاراً لنزول مهاجرين من بلغار الصقالبة فيها فسموها باسم بلادهم الاصلية .

وبعد ان وصف (ابن واسانة) المدعوين من جهة أجناسهم عاد فوصفهم من جهة عاهاتهم وعيوب خلقتهم فقال :

(كل شكلٍ : فمن طوالٍ ومن حدْ ب قصارٍ والحول والعوران)
(وشيوخ مثل الفراخ وشبّا نٍ رحاب الأشداق والمصران)
(مِعَدٌ جُوّعت ثلاثين يوماً بسلاح الأضراس والأسنان)

ثم وصف زمن رحيلهم وتعجيلهم بالقدوم اليه فقال :

(رحلوا من بيوتهم ليلة المرْ فعِ من أجل أكلةٍ مجّان)
(يركضون البريد تسعة أميا لٍ بنصّ الوجيف والزَمَلان)

(الوجيف) و (الزَمَلان) نوعان من السير السريع و (البريد) دواب البريد فالضيوف كانوا يشبهونها في السرعة . وقد نبهنا صديقنا الاستاذ فارس بك الخوري الى نكتة لطيفة : ذلك ان الشاعر بذكره (ليلة المرفع) كأنه يعجّب الناس من النصارى الذين تركوا ليلة مرفعهم وهي مقدمة لعيدهم الكبير وأسرعوا الى الوليمة شرهاً او عيثاً في طعام ابن واسانة .

ثم وصف وصولهم وشروعهم في التفتيش عما هيّأ لهم ليطمئن قلبهم فقال :

(لستُ أنسى مصيبتي يوم جاؤو في وفد غصّ منهمو الواديان)
(أشرفوا لي على زروعٍ وأحطا ب وبيت من خبزه ملآن)
(لبنٍ فارس ولحمٍ طريٍّ وقدور تغلي على الدّيكدان)
(وشواءٍ من الجداء ومعلو فٍ دجاج وفائق الحملان)
(وشراب ألذّ من زورة المعْ شوق بعد الصدود والهجران)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوله (وقدور تغلي على الديكدان) في (اليتيمة) (الداد كان) وفي (معجم البلدان) (الدار كان) بالراء وهما خطأ والصواب (الديكدان) كما قلنا وهي كلمة فارسية مركبة من (دبك) بمعنى قدر و (دان) أداة ظرفية مثل (دان) في شمعدان ومعنى (الديكدان) المنصب الحديدي الذي يوضع عليه القدر على النار . وقد لفظها (ابن واسانة) باصلها الفارسي (ديكدان) بالكاف ومثله المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) الذي ألفه سنة (٣٧٥ هـ) وهو معاصر لابن واسانة فقد قال في ص ٣٦٤ من طبعة اوربا في صفة سد يأجوج ومأجوج : « وفي احد الحصنين آلات البناء التي بني بها السد من قدور الحديد والمغارف على كل ديكدان اربع قدور مثل قدور الصابون » . هكذا لفظها ابن واسانة والمقدسي . اما علماء اللغة فقد كتبوها في معاجمهم بالقاف هكذا : (دقدان) لتكون على وزن من الأوزان العربية (فعلال : شملال) ولا يوجد في اللغة وزن (فيعلال) قال صاحب القاموس (والعُنَّة دقدان القدر) اي ان معنى كلمة (العُنَّة) عند العرب هو الدقدان الذي توضع عليه القِدْر .

واختلاف الأدباء واللغويين في لفظ (ديكدان) او (دقدان) راجع الى الخلاف بين سيبويه والجوهري : فالأخير اشترط في تعريب الكلمة ان تكون على أوزان العرب وسيبويه أحسن الله اليه لم يشترط هذا الشرط المتعب المُنْصب .

ثم وصف ابن واسانة احد المدعوين الذي سماه الهاشمي وئرهة العجيب فقال :

(يقدم القوم هاشميٌّ هربت الشـ ـدق رحب الملعى طويل اللسان)
(هو نمس الدجاج والبط والوزّ وذئب النعاج والخرفان)

و يظهر ان هذا الهاشمي هو غير الشريف ابي القاسم واخيه الفضل اللذين يقول فيهما :

(والشريفان أشرفا في خلال الـ ـخيل في موكب من الحبشان)
(فابو القاسم الكبير على طـ ـرف كميت أقبّ كالسرحان)
(واخوه الصغير يعترض الخيـ ـلَ على قارح عريض الأبان)
(وهما يهويان بالسوط والرّجـ ـل الى ما يسوء في مسرعات)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأن قائلاً يقول له : ولماذا إذن لا تشتمها ؟ فأجاب :

(أيُّ قلبٍ يُطيق شتم بني خيـ ـر البرايا واكرم النسوان)
(غير اني يوم القيامة اشكو هم الى الحرة الحَصان الرَّزان)
(وأُنادي يا بنت خير النبيين و يا أم أكرم الفتيان)
(اي شيءٍ صنعتُ بابنيك حتى غزواني بالسود والبيضان)

ثم جاء الدور للشمولي فوصفه قائلا :

(والشموليُّ حالقـه حلق نرّا سِ عريض الاكتاف عبل[1] اليدان)
(لست أنساه جاثياً جاحظ العيـ ـن عبوساً في صورة الغضبان)
(كالعُقاب الغرثان يقتنص اللحـ ـمَ و يهوي الى طيور الخوان)

ووصف أديباً وآخر كاتباً كانا من جملة الضيوف فقال :

(والأديب الذي كنت اعتدُّ غزرا في اللحين فيمن غزاني)
(وكذا الكاتب الذي كان جاري وصديقي ومشتكى أحزاني)
(غيَّرته الايام حتى أتاني جائعاً للشقاء مذ سنتان)
(كلما شقَّق الفراريج شقَّقْـ ـتُ لغيظي من فعله قصاني)
(وهو في امره مجدٌّ رخيُّ البـ ـال لم يعنه الذي قد عناني)
(مُجزَهِدٌ[2] كالسوس في الصوف في الصيـ ـف بقلب خالٍ من الإيمان)

ثم خاطب ابن المبشر فقال :

(قلت قل لي يا ابن المبشر ما شأ نك من بين من غزاني وشاني)
(ليس هذا من شهوة الاكل هذا من لهيب البغضاء والشنآن)

وكان في المدعوين مدعوٌّ سماه (الفيلسوف) وهل هو فيلسوف حقاً او انه يتهكَّم به تهكماً وصفه فقال :

---

(١) قوله عبل اليدان بالالف بدل الياء وارد على لغة من يلزم المثنى الالف كقوله :

(ان اباها وابا اباها قد بلغا في المجد غايتاها)

(٢) اي مسرع مجد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(قلت للفيلسوف لما غدا في الأ كل يغزو كعنتر الشجعان)
(ليت شعري أمن رسائل بقرا ـ طِ نفلست او بني يونان)

ثم حمل حملةً شديدة على احد المدعوين فوصفه باقبح الأوصاف من دون ان يسميه فقال :

(ان من أعظم المصائب يا قو م بلائي بذلك الطرمذان)

(الطرمذان) هو الذي يقول ولا يفعل ويمدح نفسه بالباطل وهذه الكلمة تصلح ان تقوم مقام كلمة (شارلاتان) الافرنسية . واذا اعترض علينا بان كلمة (الطرمذان) ثقيلة فنقول ان الذي يمدح نفسه بالباطل ثقيل ايضاً والثقيل الممقوت جدير بكلمة ثقيلة مثله .

ثم وصف الشاعر ذلك الطرمذان فقال :

(رجل كالفنيق[1] فدمٌ بلا لـ بٍّ طويل في صورة الشيطان)
(بقفا كالعمود يستعذبُ الصَّفْـ ـعَ ورأس أصمّ كالسندان)
(واسع الحلق ناقص العقل والدي ـ ـن غليظ الطباع كالصوان)
(يبلع المجنـات بلعاً بلا مضـ ـغٍ ويحسو النبيذ كالثعبان)
(لا تمنني يا ربّ حتى أراه قد تدلى وعنقه شبران)

هذا دعاء عليه بالشنق لان المشنوق هو الذي يتدلى وتطول عنقه .

و يظهر ان الضيوف صحبوا زامراً ومغنياً لا يحسنان العزف فقال يهجوهما :

(وأتوني بزامرٍ زمره يحكـي حُباقَ العبيد والرعيان)

و (الحباق) له معنى لا يناسب التصريح به فليراجعه طلابنا النجباء في كتب اللغة .

(ومغنٍّ غناؤه يطلق البطـ ـنَ ويأتي بالقيء والغثيان)

ثم ان الشاعر هجا ضيوفه صفقةً واحدة فقال :

(قصدت هذه الطوائف جمرا يا لهتكي وذلتي وامتهاني)
(قلتُ ماشأنكم ؟ فقالوا أغثنا ما طعمنا الطعام منذ ثمان)

(١) الفنيق الفحل من الابل والفدم الاحمق البليد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(وأناخوا بنـا فيا لك من يو م عبوس عصبصب أرونان)

(عصبصب أرونان) اي صعب شديد . واستعمال (ابن واسانة) لكلمات اللغة يدل على انه راسخ في اللغة العربية خبير بفصيحها وغريبها .

(تركوني يا قوم أجردَ من فرْ خٍ وأعرى ظهراً من الأفعوان)

(أكلوا لي من الجداء ثلاثيـ ـ ـن حنيـذاً بالخلّ والزعفران)

(الحنيذ) الجدي المشوي .

(اكلوا ضعفَهـا شواءً وضعفيـ ـ ـها طبيخاً من سائر الألوان)

(اكلوا لي نبّالةً تبّلت عَقْـ ـلي بعشر من الدجاج سمان)

لعل النبالة هي ما نسميه اليوم متبّل .

(اكلوا لي مضيرةً ضاعفت ضعـ ـفي بلحم الدجاج والجديان)

(المضيرة) عند العرب لبن حامض يطبخ باللحم فلعلها ما نسميه اليوم لبنية او اللبنيـة يكون فيها أرز عادةً والمضيرة لا أرز فيها فهي إذن الشاكرية .

(اكلوالي كشكية كشكشت قلـ ـبي وهاجت لفقدها أشجاني)

والكشكية هي الكشكة نفسها في الراجح .

(اكلوا لي سبعين حوتاً من النهـ ـر طرياً من أعظم الحيتان)

يظهر ان محصول (بردى) من السمك منذ الف سنة كان اكثر منه الآن .

(اكلوا لي من القريشاء والبرْ نيّ والمعقليّ والصرفان)

لعل (القريشاء) هي ما نسميه اليوم قريشة وهي ضرب من الجبن المملّح يكون متفتتاً غير متماسك و (البرنيّ) أجود التمر . اما (المعقلي) و (الصرفان) فلم اعرفهما .

(اكلوا لي من الكوامخ والجوْ ز معاً والخلاط والأجبان)

(الكوامخ) المشهيات من الاطعمة و (الخلاط) عند الدماشقة اليوم ضرب من المشهيات ايضاً يتخذ من الشوندر واباز ير أخرى .

(ومن البيض والمخلّل ما تهـ ـجز عن جمعه قرى حوران)

(بذّروا لي من السفرجل والنفـ ـاح والرازقيّ والرمان)

(والرياحين ما رهنت عليه جبتي عند احمد الفاكهاني)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الرازقي) و يسمي الملاحي (بالتخفيف والتشديد) ضرب من العنب ابيض طو يل الحب ولعله المسمى اليوم (ز ينى) .

وهنا إشكال : وهو ان الوليمة كانت في عيد المرافع وهذا العيد يكون في آخر الشتاء عادة فكيف وجد السفرجل والتفاح والعنب في جمرايا في ذلك الوقت . اما الرمان فيمكن خزنه الى ايام الشتاء . او لعلّ الذي اكلوه معقود التفاح والسفرجل وزبيب العنب لا هي نفسها :

(ذبحوا لي بالرُغم يا معشر النا س ثمانين من معيز وضانْ)
(ما كفاهم تذبيحهم غنم القر بة حتى أنحوا على الثيرانْ)
(ذبحوها والدمع يجري على خـ ـدّي انسياباً مثل انسياب الجمان)
(اكلوا كلّ ما حوته يميني وشمالي وما حوى جيراني)
(ثم قالوا : هلمّ شيئاً فنادي ـ ـتُ غلامي : قم ويك خبيءُ حصاني)

ولكن هل سكت الضيوف عن مضيفهم الذي سبهم كل هذا السبّ ؟ كلاّ بل كالوا له بالكيل الذي كال لهم وأزيد . وقد وصف ذلك فقال :

(فتمالوا عليّ شتماً ولعنـاً واستباحوا عرضي بكل لساني)
(من له قدرة على الهجو يهجو ني ومن كان مفحماً يلحاني)

وبعد ان فرغوا من الطعام والالتهام صدرت عنهم أعمال ممقوتة لا تليق بالكرام وقد وصفها بقوله :

(ثم لما أتوا على كل شيءٍ ختموا محنتي بكسر الاواني)
(ثم قاموا الى الجلاهق والبا شق والاحابيل والزَربطان)

يعني انهم قاموا الى صيد ما في القرية من الطيور ليأكلوها فوق ما اكلوا .

و (الجلاهن) بندق من طين يرمى به الطير و (الأحابيل) الشباك و (الزَرْبَطان والزربطانة) حرّفها عوام زمانهم عن (زَبَطانة) وهي قناة جوفاء كالقصبة توضع فيها سهام صغار ينفخونها نفخاً في صيد الطيور فلا تكاد تخطيء . ومازالت الزربطانة والجُلاهق في خدمة الانسان حتى خلفتهما البندقية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فرأيت الحمام بعضاً على الأر ض وبعضاً ملقىً على الاغصان)
(ورأيت الدجاج في وسط القر يةِ مُعْيِيَ مكسَّر السيقان)

ثم وصف تنظيفهم لأيديهم من دسم الطعام فقال :

(اكلوا ما ذكرت ثم أضاعوا يا شقائي حملاً من الأُشنان)
(ومن المحلب المطيَّب بالبا ن وماء الكافور سبعَ براني)

ذكر الأشنان ولم يذكر الصابون مع انه كان في زمنهم . لكنه ذكر مكانه منظفاً آخر لا عهد لنا به . وهو المحلب المطيَّب بالكافور و باللبان . واللبان اسم شجر ورقه كورق الصفصاف فهل هو منظف مطيب يا ترى ؟ او المراد باللبان بخور الحصى لبان ؟ وقد قال انهم استعملوا من هذا المحلب المطيب سبعَ براني اي سبع قدور من خزف .

ثم عاد الشاعر فذكر من تخريبهم وعيثهم وعربدتهم مالا يكاد يصدق فقال :

(وأقاموا سُوَاسهم والمُكارِ يـ ـن الى ان سمعت صوت الأذان)
(ينقلون الاحطاب من حيث وافو ها : فبالفأس ضاع لي غيضتان)
(جوزةٌ كان حملها أحسن الحمْـ ـل وكانت ظليلة الأفنان)
(كان لي في فنائها منزل رَحْـ ـبٌ أنيق يحفه نهران)
(ورياض مثل البرود علاها الـ ـطلُّ بين البهار والأقحوان)
(وطيور ما بينها تتغنى بجميع اللغات والألحان)
(هي كهفي ومستظلي من الحَـ ـرّ وذخري لنائبات الزمان)
(أحرقوها يا قوم ظلماً فكانوا يرشقون الأحطاب بالنيران)
(كسروا السكر فاختُلطتْ فقالوا كيف تبقى بغير شاذروان)
(قطعوا اللوز والسفرجل قضبا ناً ومالوا بها على غلماني)
(والنواطيرَ مددوا وعلوهم حنقاً بالعصيّ والقضبان)

ثم ذكر ان ضيوفه أخشوا في مطالبهم : فقد اقترحوا عليه ان يأتيهم بصبيان القرية ونسائها كي يقوموا بخدمة خصوصية فطار عقل شاعرنا الواساني وصرخ في وجوههم قائلاً ما بقي على جمرايا الا ان تقدم لكم هذه الخدمة المغشوشة ونظم في ذلك أبياتاً رأينا ان نضرب صفحاً عن ذكرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم عاد القوم الى عربدتهم وإفسادهم في القرية فقال في حكاية ذلك :

(ثم راحوا بعد العشاء الى دا ري فلم يتركوا سوى الحيطان)
(كان لي مقعدٌ وفرش مليح فوقه مطرح من الميساني)

(المطرح) المفرش ونقول اليوم (طراحة) والميساني نوع من الثياب يصنع في ميسان وهي كورة بين البصرة وواسط .

(وبساط من أحسن البسط مذخو رٌ لعرسٍ او دعوةٍ او ختان)
(غرقوه بالبصق والبول والقيـ ـئ فأضحى وسعره بعرتان)
(سرقوا جبتي وسيفي وسكيـ ـني وخفي وجوربيَّ وراني)

(الران) شبه الطماقات التي تصان بها الساقان وتكون من جلد غالباً . وقد قرر المجمع العلمي استعمال الران مكان كلمة (الطماقات) التركية في ما قرر من الألفاظ .

(أوقدوا زيتنا جزافاً بلا كيـ ـلٍ يكيلونه ولا ميزان)
(خلتْ داري ياإخوتي الجامع الامـ ـويّ ليلاً بالنصف من رمضان)

وبعد هذا التعب كله أما أخذ القوم لانفسهم راحة ؟ قال :

(ثم لما انتهت بهم شدة البطـ ـنة خرّوا صرعى على الاذقان)
(هوّموا ساعةً كتهويمة الخا ئف في غير ارضه الفزعان)

(الفزعان) الخائف ونحن اليوم نستعمل هذه الكلمة وهي غير قاموسية اي غير موجودة في قواميس اللغة وانما الموجود فيها رجل فَزِع وفازع . فهل يصح لنا ان نستعمل كلمة فزعان استناداً الى استعمال الشاعر الواساني لها ؟ مسألة تحت الدرس في المجمع العلمي .

ثم وصف الشاعر ما كان من ضيوفه بعد ان هبوا من نومهم يطلبون طعام الصبحية فقال :

(ثم قاموا ليلاً وقد طلع النجـ ـمُ ومال السماك والفرقدان)
(يصرخون الصبوح ياصاحب البيـ ـت فأبكوا عيني وراعوا جناني)
(محبوني من عُقر داري على وجـ ـهي كأني أدعى الى السلطان)
(بقلوبٍ أشدّ حراً من الجمـ ـر وأقسى من صخرةٍ صوّان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يظهر ان صنيعهم هذا أفزع نسوة بيته ولا سيما ابنه الصغير (ميمون) فاستعطفهم عليه قائلاً :

(قلت : رفقوا لذلك الطفل ميـ ـ ـونٍ ولا تيتموه يا إخواني)
(ما لنفي اكلة بقتل غريب ذي عيال ناءٍ عن الاوطان)

ثم ذكر من سوء صنيعهم به ما لا يكاد يصدق فقال :

(عاقوني بفرد رجلٍ الى السقـ ـف وعُذّبت ليلتي بالدخان)
(لو رآني ابي وأمي معكو سًا ورجلاي بالعصا تنقران)
(بكيا رحمةً وفكّا وثاقي من يديهم بكل ما يملكان)

ولما رأى الشاعر ما حاق به من البلاء استغاث بالشريفين فقال :

(قلت للفضل والشريف اغيثا ني . وموتي قد حلّ بي خاصاني)
(واذكرا عشرتي وودّي واخلا صي وحنّا علي واستبقياني)
(أنتما انْ قتلتماني وحق اللـ ـه من أجل اكلة لندمان)
(أشهد الله ليس عندي مشرو ب ولا في خزانتي لقمتان)
(فاستشاطا غيظاً عليّ وقال الـ فضل قل لي بأيّ عين تراني)
(أنا من أحمق البرية ان صـد قتُ ما تأتليه من أيمان)

ثم رقّ له الفضل وخلصه من الشنق ولكن على هذه الصورة المزعجة :

(قطع الحبل فانقلبت على رأ سي وظهري واندق لي ضلعان)

وبعد ان يئس المدعوون من طعام الصبوح شفوا قلبهم بنهب التبن فقال واصفاً ذلك :

(ثم لما تمكّن اليأس خلو ني ومالوا ميلاً على الاتبان)
(وأجيري مسخر ينقل الأتـ ـبانَ بالذل عاريَ الجثمان)
(وهو يبكي . فقلت ويحك إما تصـ ـنع بالتبن بعد موتة الفدان)

وهل اكتفوا بالتبن ؟ كلا بل .

(سرقوا السُرُج والقناديل والزيـ ـت وأقداحنا وكل القناني)
(لو ترى الفضل وهو يحمل في السرَ ج قميصاً مربط الأردان)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(قد حشاه لحماً وطيراً وسبعيـ ـن رغيفاً من اكبر الرغفان)

كل هذا صنعه ضيوفك بك يا ابن واسانة . ولكن اما كان يوجد فيهم من يرحمك و يعطف عليك ؟ فأجاب .

(ما رثى لي سوى المبارك من ضُرّ ـ ـي وذاك القُصيّر الدحداني)

(رفّهاني وخفّفا الثقل عني فهما من ملامتي سالمان)

لم أجد في كتب اللغة (الدحدحاني) بمعنى القصير كما استعملها الشاعر هنا . نعم وجدت : الدودح والدحدح والدحدحة والدحداح والدحداحة والدحادح والدحُيدحة — كل ذلك بمعنى القصير . فكلمة (الدحدحاني) مما ولده الشاعر الواساني . او ان كلمة الدحدحاني محرفة عن (الرحرحان) برائين وهو من الاشياء الواسع المنبسط القريب القعر : يقال قدح رحرحان اي قريب القعر مع سعة فيه .

ثم ان صاحب الوليمة ختم قصيدته بالسؤال من حضراتكم أيها السادة قائلاً :

(هل سمعتم فيما سمعتم بانسا نٍ عراه في دعوة ماعراني)

كلاّ والله ! فان ضيوفاً يشنقون مضيفهم الى السقف ثم ينقرون رجليه بالعصا — أمر لم نسمع بمثله الا عن ضيوفك .

جمرايا اليوم

هذا ختام الكلام على وليمة ابن واسانة التي أولمها في قرية جمرايا منذ الف سنة وقد استنتجنا من القصيدة ان جمرايا كانت في ذلك العهد على جانب من العمران وتوفر أسباب الرزق . اما اليوم فهل هي كذلك ؟ كلاّ ! وانما أصبحت مزرعة صغيرة أضيفت معظم أراضيها الى قرية (الهامة) وغطّى اسم الهامة على اسمها . فنسيها اهل دمشق حتى بنى الاستاذ الخطيب داره فيها كما قلنا . فأخذ اسم (جمرايا) من يومئذ يدور على الأفواه وجعل معارف الاستاذ واصدقاؤه يقولون ذهب الشيخ الى جمرايا . وعاد من جمرايا . و بات في جمرايا .

ثم درى الاستاذ الخطيب اني أهيئ محاضرة في هذا الموضوع أريد القاءها في ردهة المجمع فقال لي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أما وقد عزمت على إحياء ذكر (جمرايا) فإني انا ايضاً أريد ان أحيي ذكر وليمة ابن واسانة ·

ففي ضحى يوم الثلاثاء الواقع في ١٦ تشرين الاول من هذه السنة (١٩٢٨ م) كانت السيارة تجري بي مع صاحبي المعالي وزيري المعارف والمالية الى (الربوة) (فدمر) (فالهامة) ثم عاجت بنا من جهة اليمين نحو جمرايا فتسللت اليها من طريق ضيق متمعّج غير معبّد ولا صالح لسير السيارات ، حتى وصلنا الى نهر بردى واذا عليه جسر جديد بني منذ بضع سنوات ·

ثم جرى بنا الاتومبيل صُعُداً في سفح هضبة · واذا دار تلوح لنا من بعيد · واذا بياضها الناصع يتلألؤ في خضرة تلك الرياض كقطعة ماس على بساط زبرجد · واذا هي دار الاستاذ الخطيب ، واذا هو يستقبلنا ببشاشته وأُنسه المعهودين ، واذا لديه طائفة من أعيان دمشق ، واذا وليمة ابن واسانة تجددت بعد الف سنة من الزمان (وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون) وهكذا كانت لنا في دار الاستاذ الخطيب · وليمة ذات رفاغية وعيش خصيب · كان الاستاذ ابن واسانها لكن من دون تبرم بالضيوف · وكان ضيوفه ضيوف ابن واسانة ولكن من دون عربدة ولا إفساد ، ولا تكاليف سمجة دونها خرط القتاد ·

قرية (جمرايا) اليوم أيها السادة ارض ضيقة يحدها الطرف ، وتقتحمها العين ، فناة الفيجة تسيل من فوقها ، ونهر بردى يجري من تحتها ، معظم أشجارها الزيتون وقد امتازت بمحصولها من الزيت الجيد ، وفيها بضعة بيوت لفلاحيها ، وتجري فيها بعض العيون : منها عين القريبة وعين الشاعر · ولقد تجولت في جنباتها مستطلعاً طلع آثارها القديمة · فدلّوني على قناة محفورة في الصخر في سفح هضبتها · فاذا سعة فم القناة نحو متر · ولم يبق من تلك القناة الا بقية · ومن آثار القرية قساطل خزف كان يجري فيها الماء كالقساطل المعهودة عندنا · وفوق القساطل على سمك نحو ذراع ارض مبلّطة وبلاطها مرصوف بالفسيفساء وهي أحجار صغيرة كقطع أحجار زهر الطاولة من حيث الحجم والشكل رُصف بعضها الى بعض · ثم على طول الزمان تراكمت الأتربة على الفسيفساء فأصبحت أرضاً زراعية غرست فيها أشجار الزيتون · ويقول فلاحوا (جمرايا) نقلاً عن آبائهم ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القساطل والفسيفساء هما بقية آثار حمام كان مشيداً في هذا المكان . وقالوا ايضاً ان عين الشاعر الموجودة في قريتهم سميت باسم شاعر كان يأوي اليها و يذكرها في أشعاره . هذا كل ما في جمرايا من الآثار القديمة . ومن قصص فلاحيها التي يتداولونها نقلاً عن أسلافهم ان قريتهم كانت في القديم ذات عمران عظيم وان احد أمراء الشام الظالمين زارها فأولم له رئيس القرية وليمة جمعت من ألوان الطعام وصنوف الفواكه ما أثار حسد ذلك الامير الجبار ولاسيما مذ عرف ان كل ما قُدّم اليه على المائدة كان من محصول القرية ومستغلاتها . فرجع الى دمشق وأخذ يعمل على مصادرة مالكي جمرايا واستصفاء اراضيها . ولو كان في زماننا لقال : انما فعل ذلك (باسم المصلحة العامة) ومن يومئذ اخذت القرية تتدرّج الى هوّة التعاسة والخراب . وجعل أهلها يرحلون عنها الى القرى المجاورة فتعمر وتخرب هي . ثم لم تقم لها منذ ذلك الحين قائمة .

هذا ما يتحدث به فلاحوا جمرايا اليوم . و يغلب على الظن ان هذه القصة ليست سوى صدى ما كانوا يسمعونه من أخبار وليمة ابن واسانة المدوّنة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي . فان القدماء من أدباء دمشق كانوا يزورون جمرايا ويتحدثون — على مسمع من فلاحيها — بخبر وليمة ابن واسانة وبقصيدته التي قالها فيها . فعلقت الحادثة في أذهانهم وانتقلت الى أولادهم وأحفادهم على هذا الشكل المحرّف .

اما عين الشاعر فلا يبعد ان يكون المراد بشاعرها التي نسبت اليه هو ابن واسانة نفسه الذي كان له دار وعقار في القرية .

وبعد هذه الجولة في أرجاء جمرايا عدتُ عند الغروب الى الهضبة حيث دار الخطيب وأشرفت منها على ذلك المشهد العجيب :

هضاب ورُبى شاخصات للعيان ، شخوص نهود الحسان ، وعلى إحدى هذه الهضبات قرية الهامة ، ويتخلل تلك الهضبات بساتين قرى الهامة والجديدة والأشرفية وغيرها من قرى الوادي . وتتراءى لك من خلال الأشجار قضبان حديد السكة متمعجة تمعج الافعى التي تجدّ في الهرب وتسعى .

(و بردى كالمُنْصل ... او صفحة السنجنجل)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم رجعت بي الذكرى الى ماقبل الف سنة وقت ان اجتمع ضيوف الواساني في دار الواساني .

وما يدر ينا ان تكون الدار حيث الدار . كما ان الهضاب هضاب والأنهار أنهار ؟ بل ان هذه الشمس التي شهدتها في أفق (جمرايا) تهوي للغروب . أليست هي نفسها التي شهدت وليمة (ابن واسانة) كما شهدت وليمة (ابن الخطيب) ؟

هاتِ أيتها الشمس حدثينا عن تلك الوليمة التي كانت منذ الف سنة ، كما ستحدثين أبناءنا بعد الف سنة عن وليمة اليوم .

قُصّي على أحفادنا اخبارنا كما قصصتِ علينا اخبار اجدادنا . صفي لابنائنا الآتين ما نحن عليه الآن ، من التفرق والخذلان ، وكلب الزمان ، وتراكم الأحزان .

قولي لهم ان أجدادكم في القرن العشرين «كانوا [1] في فقر وفاقة ، وتأخر في القوة الحربية والسياسية عن سائر الامم ، وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض وتفرقت كلمتهم ، وجهلوا احوالهم الحاضرة والمستقبلة وغفلوا عما يضرهم وعما ينفعهم وقنعوا بحياةٍ يأكلون فيها ويشربون وينامون . ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم ان يضرّ اخاه لا يقصّرُ في إلحاق الضرر به . فجعلوا بأسهم بينهم ، والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في زوايا بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، والامراء منهم يقطعون ازمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في ادائها أعمارهم ، ولا يؤدون منها شيئاً ، يصرفون اموالهم في مايقطعون به زمانهم إسرافاً وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ، ولكن لا يدخلُ في حسابها شيءٌ يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون وينيطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية . فربّ تنافر بين اميرين يضيع أمةً كاملة . كل منهما يخذل صاحبه . ويستعدي عليه جاره . فيجد الاجنبي فيهما قوةً فانية . وضعفاً قاتلاً . فينال من بلادهما

(١) هذه الجملة من هنا الى قوله (وحفظ الحق من تعدي الاقوياء) مقتبسة من مقال (القضاء والقدر) احدى مقالات جريدة (العروة الوثقى) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مالا يكلفه عدداً ولاعدة . شملهم الخوف والذعر . وعمهم الجبن والخور . يفزعون من الهمس . و يألمون من اللمس . قعدوا عن السير الى مايلحقون به الامم في العزة والشوكة . وخالفوا في ذلك كله اوامر دينهم معرؤيتهم لجيرانهم بل الذين كانوا تحت سلطانهم . يتقدمون عليهم . و يفاخرونهم بما يعلمون ويعملون . واذا أصاب قوماً من إخوانهم مصيبة اوعدت عليهم عادية لا يسعون في تخفيف مصابهم . ولا ينبعثون لمناصرتهم . ولا توجد فيهم جمعيات ملية ولا اخلاقية . يكون من مقاصدها إحياء الغيرة . وتنبيه الحمية . ومساعدة الضعفاء . وحفظ الحق من تعدي الأقوياء » .

هكذا أيتها الشمس قولي لأحفادنا عنا . وصفي لهم احوالنا ، حتى اذا رأيتهم قد اكفهرت وجوههم . وتقعطت من الأسى قلوبهم . عودي فارفقي بهم . و كفكفي من دمعهم . و بشريهم ايتها الشمس بنهضتنا الجديدة . التي شيدناها على العلم والاتحاد فكانت سبباً لسعادتكم انتم ايها الاحفاد . والسلام .

« المغربي »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net